فضل العلم

الشيخ ندا أبو أحمد

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

فضل العلم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضل له ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله....

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿ ٧٠ ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

أولا: فضل العلم من كتاب الله عز وجل

- العلم يُزكي صاحبه ويُعلي من شأنه
- العلم نور وهاج في قلب صاحبه يكشف له عن حقائق الأمور، بخلاف أهل الجهل فهم بمنزلة العُميان
-العلم يرفع صاحبه في أعلى الدرجات والمراتب بعد الأنبياء
- لا يستوي أهل العلم بغيرهم في الفضل والمكانة
- أهل العلم طوق النجاة للناس في زمن الفتن وانتشار الجهل
- العلم يُنير بصيرة صاحبه، ويجعله الله حجة على المعاندين المكذبين
- العلم يجعل صاحبه أكثر الناس تفكراً وتدبراً، فينتفع بالحجج والبراهين التي يضربها الله للناس
- العلم يمنح صاحبه المعرفة والنور وبهما يفرق بين الحق والباطل فلا يحيد عن الصراط المستقيم
- العلم يجعل صاحبه إماما للناس يأخذ بنواصيهم إلى مرضات الله-عز وجل-
- فضل الله تعالى بني آدم على غيرهم من خلقه بالعلم والمعرفة، فحازوا الكرامة والشرف والسبق
- العلم أول نعمة أنعم الله بها على عباده
- العلم من فضل الله علينا وكرمه، ولولاه لكان الناس أضل من الأنعام
- العلم هو الوحيد التي طلب اللهُ من رسولَه التزود منه
- من أُوتِيَ العلم فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً، فالعلم مِنَّة من الله يُعطيها لمن يحب
-العلم أساس صحة الاعتقادات والعبادات
- العلم نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله
- الناس أموات وأهل العلم أحياء
- أهل العلم أكثر الناس استجابة لأوامر الله، وأكثر الناس انتفاعا بها
- العلم حياة للقلوب، ونور للأبصار

ثانيا: فضل العلم من كلام الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم

- العلم فرض على كل مسلم
- العلم ميراث الأنبياء
- وصية النبي صلى الله عليه وسلم بطلبة العلم
- بالعلم يُعرَفُ اللهُ ويعبد ويوحد، وهو نجاة في الدنيا من الشهوات والشبهات
- العلم نفعه متعدي، بخلاف العبادة فنفعها لا يتعدى صاحبها:
- طالب العلم ينفع نفسه وينتفع به غيره
- من أراد الله به خيرا فقهه في الدين، وفتح له طريقا لطلب العلم
- طالب العلم عَدل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم:
- طالب العلم العامل هو بأفضل المنازل عند الله –عز وجل–
- طالب العلم المجتهد يؤويه الله ولا يعرض عنه
- طالب العلم حريص على ما ينفعه في دينه ودنياه.
- طالب العلم بمنزلة الحاج المحرم.
- طالب العلم بمنزلة المجاهد في سبيل الله.
- طالب العلم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بنضارة الوجه
- طلب العلم سبب لنزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة، وذكر الله لطالب العلم في الملأ الأعلى
- طلب العلم يزيد من قدر وشرف صاحبه
- طلب العلم يكسب صاحبه الحجة والبيان والبرهان
- طلب العلم خير ما يسعى إليه الإنسان، وأفضل ما يمدح به
- طالب العلم يباهي الله به الملائكة طالب العلم العامل به والمعلم غيره، لا ينقطع أجره وثوابه بعد موته.
- طالب العلم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بنضارة الوجه
- طلب العلم سبب لنزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة، وذكر الله لطالب العلم في الملأ الأعلى
- طلب العلم يزيد من قدر وشرف صاحبه
- طلب العلم يكسب صاحبه الحجة والبيان والبرهان

- طلب العلم خير ما يسعى إليه الإنسان، وأفضل ما يمدح به
- طالب العلم يباهي الله به الملائكة
- طالب العلم العامل به والمعلم غيره، لا ينقطع أجره وثوابه بعد موته.
- العلم نعمة يغبط صاحبها عليها:
- طلب العلم طريق الوصول إلى الجنة:

ثالثا: فضل العلم من أقوال السلف

يُذكر في ثنايا الرسالة

فضل العلم

مقدمة:

يقول ابن القيم –رحمه الله– كما في" مدارج السالكين: ٢/٤٦٩-٤٧٠":

العلم هادٍ، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم وَورَّاثُهُمْ، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدي والضلال. به يُعْرَفُ اللهُ ويُعبدُ، ويُذكرُ ويُوحَدُ، ويُحَمدُ ويُمجَدُ، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومنه دخل القاصدون وبه تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال والحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع،

وهو الصاحبُ في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف في الشبهة، والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل الصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام. أه

ويقول الغزالي –رحمه الله– كما في كتابه "إحياء علوم الدين: ١/١٣":

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره، وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره وذاته جميعا، فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره، والمطلوب لغيره: كالدراهم والدنانير، ولولا أن الله تعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة، والذي يطلب لذاته: كالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى، والذي يطلب لذاته ولغيره: كسلامة البدن، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث أنها سلامة للبدن عن الألم، ومطلوبة للمشي بها والتوصل إلى المأرب والحاجات وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي

السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.

فأصل السعادة في الدنيا والأخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال وكيف لا؟ وقد تُعرَفُ فضيلة الشيء بشرف ثمرته، وثمرة العلم هي القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة، ومقارنة الملأ الأعلى، هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع. أه بتصرف واختصار.

أولا: فضل العلم من كتاب الله – عز وجل–

١– العلم يُزكي صاحبه ويُعلي من شأنه:

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:١٨)

يقول بن القيم –رحمه الله– كما في مفتاح دار السعادة: ١/٢١٩":

وهذه الآية تدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

١– استشهادهم دون غيرهم من البشر.

٢– اقتران شهادتهم بشهادتِهِ سبحانه.

٣– اقترانُها بشهادة الملائكة.

٤– إنَّ في ضمن هذا: تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، وقد جاء في الحديث:" يحملُ هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عُدُولُه، ينفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين".

(رواه ابن عدي في الكامل، وابن أبي حاتم وصححه الألباني)

٥– أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجلُّ شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكتُهُ والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا.

٦– أنه استشهد بهم على أجلِّ مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادةُ أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابرَ الخلق وساداتِهم.

وقال السعديُّ –رحمه الله– في تفسيره عند الآية السابقة:

في هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصَّهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة الملائكة، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة. وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يُقادَرُ قَدْره ". أه

ومما يدل على هذا أيضا قوله تعالي: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد: ٤٣)

فهذه الآية تدل أيضاً على شرف العلم وفضل العلماء حيث قرن الله تعالي شهادته بشهادتهم علي صدق بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢– العلم نورٌ وهاج في قلب صاحبه يكشف له عن حقائقِ الأمور، بخلاف أهل الجهل فهم بمنزلة العُميان:

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (الرعد: ١٩)

يقول ابن القيم –رحمه الله– كما في مفتاح دار السعادة: ١ /٢٢٢:

"جعل – سبحانه–أهلَ الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال تعالى:(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) فما ثم إلا عالم أو أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه. أه

فالعلمُ حياةُ القلوبِ من العمى، وقوة للأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، وهو إمام للعمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء.

وقال السعدي –رحمه الله–: " في تفسيره "تيسير الكريم الرحمن ص٣٧١"

"يقول تعالي مفرقا بين أهل العلم والعمل وضدهم: " أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ " ففهم ذلك، وعمل به" كَمَنْ هُوَ أَعْمَى" لا يعلم الحق، ولا يعمل به، فبينهما من الفرق، كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر، أي الفريقين أحسن مآلا، وخير حالا، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره." إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ" أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم، وصفوة بني آدم.

قال سابق البربري في قصيدة له:

والعلمُ يجلو عن قلبِ صاحبه كما يُجلي سوادَ الظلمَةِ القمرُ

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهِلِها ولا البصِيرُ كأعمَى ماله بصرُ

يقول أحمد بن عمر بن عصفور:

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلم وعنه فكاشفْ كل من عنده فهمُ

ففيه جلاءٌ للقلوب من العمى وعونٌ على الدين الذي أمرُهُ حتمُ

فإني رأيتُ الجهلَ يزرِى بأهلهِ وذو العلمِ في الأقوام يرفعُه العلمُ.

(جامع بيان العلم وفضله: ٢١٩/١)

والله تعالى سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره ألا يعبأ بالجاهلين شيئا

قال تعالى: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (الإسراء:١٠٦- ١٠٨)

وهذا شرف عظيم للعلم ولأهله

٣-العلم يرفع صاحبه في أعلى الدرجات والمراتب بعد الأنبياء:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١١)

قال القرطبي: " -رحمه الله-: في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن: ٢٨٥/١٧"

وقوله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) أي: في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع الله المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه مدح الله العلماء في هذه الآية. والمعنى: أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم "درجات" أي: درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به ". أه

ويقول بن القيم -رحمه الله- في" كتابه الفوائد ص١٣٨":

أفضل ما اكتسبته النفوسُ وحصلته القلوبُ، ونال به العبد الرفقة في الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله:(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ " (الروم: ٥٦)

وقوله" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١)

ومما يدل على أن هذا العلم يرفع الله به أقواما ويضع به آخرين:

ما رواه الإمامُ مسلمٌ عن عمر بن الخطابرضي الله عنه أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي لقيه بعُسْفَانَ، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى. قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجلوإنه عالم بالفرائض. قال عمررضي الله عنه: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين".

وقال الحجاج لخالد بن صفوان: من سيد أهل البصرة؟ فقال له: الحسن. فقال الحجاج: وكيف ذلك وهو مولى؟

فقال: احتاج الناس إليه في دينهم واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيت أحدا من أشراف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول في حلقته إليه ليستمع قوله ويكتب علمه. فقال الحجاج: هذا والله السؤدد.

ويقول أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي: كان عطاء[1] بن أبي رباح عبدا أسود لامرأة من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلاة[2]. قال: وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء، هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى أنفتل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما. وقال: يا ابني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود.

(الفقيه والمتفقة للخطيب البغدادي: ٣١/١)

وقال محمد بن القاسم بن خلاد: كان الأوقصُ[3] قصيراً دميماً قبيحاً، قال: فقالت لي أمي، وكانت عاقلة: يا بني، إنك خلقت خلقة لا تصلح لمعاشرة الفتيان، فعليك بالدين، فإنه يتم النقيصة، ويرفع الخسيسة، فنفعني الله بقولها، وتعلمت الفقه، فصرت قاضيا" (الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٣٢/١)

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي: كان عنق محمد بن عبد الرحمن الأوقص داخلا في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنهما زوجان[4]، فقالت له أمه: يا بني لا تكون في قوم إلا كنت المضحوك منه، المسخور

---

[1] – وعطاء هو أبو محمد، وكان مفلفل الشعر، أسود، أفطس، أشل، أعور، ثم عمى، وكان مولى فِهْرٍ، أو حُمَحٍ.

[2] – باقلاة: مفرد الباقلاء، والباقلي: هو الفول.

[3] – قال في اللسان: "الوقص بالتحريك: قِصرُ العنق، كأنما رد في جوف الصدر، وهو أوقص، وامرأة وقصاء" [لسان العرب (مادة وقص) صـــ ٤٨٩٢].

[4] – زوجان: أي فرخان من الحمام، وذلك من بروز منكبيه.

به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك. قال: فطلب العلم. قال: فولى قضاءَ مكةَ عشرينَ سنة، وكان الخصم إذا جلس بين يديه يرعد حتى يقوم.

قال الشافعي –رحمه الله– في ديوانه ص١٥٣:

رأيت العلم صاحبه شريف وإن ولدته آباء لئامُ

وليس يزال يرفعهُ إلى أن يعظم قدره القوم الكرامُ

ويتبعونه في كل أمر كراعِ الضأنَ تتبعه السوامُ

ويحمل قوله في كل أمر ومن يك عالما فهو الإمامُ

فلولا العلم ما سعدت نفوس ولا عرف الحلال ولا الحرامُ

فبالعلم النجاة من المخازي وبالجهل المذلة والرغامُ

هو الهادي الدليل إلى المعالي ومصباح يضئ به الظلامُ

كذاك عن الرسول أتى عليه من الله التحية والسلامُ

(جامع بيان العلم: ١/٥٤)

فبهذا العلم رفع الله به أقواما، وجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدي بهم، أدلة في الخير تقتفي آثارهم، تحفهم الملائكة بأجنحتها، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه.

٤– لا يستوي أهل العلم بغيرهم في الفضل والمكانة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩)

قال ابن القيم –رحمه الله–: كما في " مفتاح دار السعادة:١/٢٢١" ": إنه سبحانه نفى التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم، كما نفي التسويةَ بينَ أصحاب الجنة وأصحاب النار، فقال تعالى: لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ (الحشر:٢٠) وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم. أه بتصرف

يقول أبو بكر بن دريد –رحمه الله–:

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم وأودُّهم في الله ذي الآلاء

أهلا بقوم صالحين ذوي تقي غر الوجوه وزين كل ملاءِ

ومدادُ ما تجري به أقلامهم أزكى وأفضل من دم الشهداءِ

يا طالبي علم النبي محمد ما أنتم وسواكم بسواءِ

وقال السعدي –رحمه الله–: في تفسيره ص٦٦٦:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) ربهم ويعلمون دينه الشرعي، ودينه الجزائي وما له في ذلك؟ من الأسرار والحكم، (وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) شيئا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، ولا الضياء والظلام، والماء والنار. (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ) إذا ذكروا (أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) أي: أهل العقول الزكية

الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولا، ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه. أه

٥- أهل العلم طوق النجاة للناس في زمن الفتن وانتشار الجهل:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤٣)

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٧)

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسيره ١١٤/١٠"قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: أهلُ الذكرِ: أهلُ القرآن وقيل: أهل العلم، والمعني متقارب.

وقال السعدي في" تفسيره ص٣٩٤": يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً) أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالا كاملين لا نساء "نُّوحِي إِلَيْهِم "من الشرائع والأحكام، ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ) وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأنه بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال. أه

٦- العلم يُنير بصيرة صاحبه، ويجعله اللهُ حجةً على المعاندين المكذبين:

قال تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سبأ: ٦)

قال ابن القيم -رحمه الله-: كما في " مفتاح دار السعادة:٢٢٢/١"

"أخبر- سبحانه-عن أولي العلم بأنهم يرون ما أُنزل إليه من ربه حقا، وجعل هذا ثناءً عليهم واستشهادا بهم.

وقال السعدّيُ -رحمه الله- في تفسيره ص٦٢١: " لما ذكر- تعالى-إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهلُ العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطلٌ، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

وهذه منقبةٌ لأهلِ العلم وفضيلةٌ، وعلامةٌ لهم، وأنه كلما كان العبدُ أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حُجةً على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم واحتج الله–تعالى– بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية، وغيرها. أه باختصار

ويشبه الآية السابقة قوله تعالى:(أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (الأنعام: ١١٤)

يقول ابن القيم –رحمه الله–كما في " مفتاح دار السعادة:١/٢٢٢"

شهد الله تعالى لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله. أه

٧– العلم يجعل صاحبه أكثر الناس تفكراً وتدبراً، فينتفع بالحجج والبراهين التي يضربها الله– تعالى– للناس:

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣)

يقول ابن القيم –رحمه الله– في " مفتاح دار السعادة:١/ ٢٢٦" في هذه الآية:

أخبر سبحانه عن أمثاله التي يضربها لعباده، ويدلهم على صحة ما أخبر به، أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها، وفي القرآن بضعةٌ وأربعون مثلا، وكان بعض السلف (سنان بن عمرو بن مُرة) إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لستُ من العالمين. أه بتصرف

وقال بن كثير في تفسيره: "٣/٦٨٣"

ومعنى الآية وما يفهمُها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. أه

٨– العلم يمنح صاحبه المعرفة والنور وبهما يفرق بين الحق والباطل فلا يحيد عن الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٥٤)

يقول السعدي –رحمه الله– في تفسيره ص٤٩١:

وقوله تعالى:(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) وأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيفرقون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يُحكِمُه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء ليظهر بذلك كمائنَ النفوس الخيرة والشريرة. (فَيُؤْمِنُوا بِهِ) بسبب ذلك، ويزداد إيمانُهم، عند دفع المعارض والشبهة. "فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ "، أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم. (وَإِنَّ اللَّهَ

لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا) بسبب إيمانهم، (إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) علمٍ بالحق، وعملٍ بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرةِ، وهذا النوعُ من تثبيت الله لعبده.

٩- العلم يجعل صاحبه إماما للناس يأخذ بنواصيهم إلى مرضاة الله-عز وجل-:

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ٨٣)

وقال السعدي -رحمه الله- في تفسيره ص٢٢٥: وقوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) أي: علا بها عليهم، وفَلَجَهُم بها." نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء"، كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصا: العالِمَ، العاملَ، المعلمَ، فإنه يجعله اللهُ إماماً للناسِ، بحسب حاله، تُرمقُ أفعاله، وتُقتفى آثارُه، ويُستضاء بنوره، ويُمشي بعلمه في ظُلمة ديجوره.

وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم) فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بهما، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

١٠- فضَّل الله تعالى بني آدمَ على غيرهم من خلقه بالعلمِ والمعرفةِ، فحازوا الكرامةَ والشرفَ:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)

قال ابن رجب -رحمه الله- في مجموع رسائله"١/٣٩"

ومما يدل على تفضيل العلم على العبادة: قصة آدم -عليه السلام-، فإن الله تعالى إنما أظهر فضله على الملائكة بالعلم، حيث علمه أسماء كل شيء، واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك، فلما أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذ فضله عليهم. أه

فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣١-٣٢)

ويقول ابن القيم –رحمه الله– كما في كتابه مفتاح دار السعادة"١/٢٢٨":

وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

الأول: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم، فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال:" أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ "(البقرة:٣١)، جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز، وجهل ما لم يعلموه، فقالوا: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (البقرة: ٣٢) فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم، فقال: ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ (البقرة: ٣٣) فأقروا له بالفضل.

الثاني: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم. أه ملخصاً

١١– العلم أول وأعظم نعمة أنعم الله بها على عباده:

قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١–٥)

يقول ابن كثير–رحمه الله– في تفسيره: ٤/٨٧٩"

أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال:(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

وقال القرطبي –رحمه الله– في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/١١٩:

وقوله تعالى:(عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) قيل: الإنسان هنا: آدم عليه السلام، علمه أسماء كل شيء، حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى:(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا) (البقرة:٣١) فلم يبق شيء إلا وعلم سبحانه آدم اسمه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما علمه، وبذلك ظهر فضله، وتبين قدره، وثبتت نبوته، وقامت حجة الله على الملائكة، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر، ثم توارثت ذلك ذريته خلفا بعد سلف، وتناقلوه قوما عن قوم. وقيل: "الإنسان"

هنا الرسول صلى الله عليه وسلم، ودليله قوله تعالى:(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) (النساء: ١١٣)، وعلى هذا فالمراد ب "علمك" المستقبل، فإن هذا من أوائل ما نزل.

وقيل: هو عام لقوله تعالى:(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً) (النحل: ٧٨). أه

١٢- العلم من فضل الله علينا وكرمه، ولولاه لكان الناس أضل من الأنعام:

وقال تعالى: وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيما (النساء: ١١٣)

قال ابن القيم -رحمه الله- كما في " مفتاح دار السعادة: ٢٢٧/١"

عدد سبحانه نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلها أن أتاه الله الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى:(وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيما). أه

١٣- العلم هو الوحيد التي طلب اللهُ من رسولَه التزود منه:

فقال تعالى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً (طه: ١١٤)

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: ٤٤/٤"

فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد كما أمر أن يستزيده من العلم. أه

وقال ابن القيم -رحمه الله-كما في " مفتاح دار السعادة: ٢٢٣/١"

إن الله -سبحانه- أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم، وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه. أه

١٤- من أُوتِيَ العلم فقد أُوتي خيراً كثيراً، فالعلم مِنَّة من الله يُعطيها لمن يحب:

وقال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ [1]مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (البقرة: ٢٦٩)

١- ذهب بعض أهل العلم كالشافعي -رحمه الله- إلى أن المقصود بالحكمة هي السنة. وقال الطبري في تفسيره:٢١٠/٣: الحكمة هي السنن والفقه في الدين

لأن الله تعالى ذكر الحكمة في عدة مواضع مقرونة بالكتاب العزيز في مثل قوله تعالى: وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ (البقرة: ٢٣١)، وقوله تعالى: وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً (الأحزاب: ٣٤)

وقوله تعالى: وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيما (النساء: ١١٣)

قال في " عمدة التفسير:٢/١٨١": قوله تعالى:" يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ " قال ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخِه ومنسوخِه، ومحكمِه ومتشابهِه، ومقدمِه ومؤخرِه، وحلاله وحرامِه وأمثالِه.
وقال مجاهد:(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ) ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن. وقال مالك: إنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله. أه مختصراً
وقال ابن القيم –رحمه الله– في" مفتاح دار السعادة:١/٢٢٧": شهد الله سبحانه لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرا كثيرا، فقال تعالى:(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق، والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح. أه

قال السعدي –رحمه الله– في تفسيره: ص٩٥: والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال:(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم.
وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام. ولكن، ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم (إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه. أه

وفي الآية السابقة يتبين لنا جلياً أن: العلم فضل ونعمة ومِنَّة من الله على من يشاء من عباده.
فالله تعالى لما ذكر نعمته على حبيبه ونبيه وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيما ﴾ (النساء: ١١٣)

وأثنى على خليله إبراهيم– عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: ١٢٠–١٢١)
والأمة هو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل، والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات، كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الناس إليه.

وقال في يوسف–عليه السلام–: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٢٢)

وقال في موسى–عليه السلام–: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص: ١٤)

وقال في حق المسيح –عليه السلام–: ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (المائدة: ١١٠)

وقال في حق داود–عليه السلام–: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (ص: ٢٠)

وقال في حق الخضر صاحب موسى–عليه السلام–: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف: ٦٥)

وقال في داود وسليمان–عليهما السلام–: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (الأنبياء: ٧٩)

وقال في حق هذه الأمة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

فامتن عليهم سبحانه بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويالها من منة عظيمة فاقت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن. أه (باختصار من مفتاح دار السعادة لابن القيم –رحمه الله–)

١٥–العلم أساس صحة الاعتقادات والعبادات:

قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (الملك: ٢)

قال ابن القيم –رحمه الله–: في كتابه مفتاح دار السعادة: ١/٣٠٢"

إن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود.

فالعلم هو الميزان وهو المحك، قال تعالى:(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ "، قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، فالخالصُ أن

يكون لله، والصواب أن يكونَ على السنة، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف: ١١). فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرادا به وجه الله. ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع بين هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبودَه لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلمُ هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة.

وقد قال الله تعالى:﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، وأحسن ما قيل في تفسير الآية، أنه: إنما يتقبل عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم. وإذا كان هذا مترل العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم. أه

١٦- العلم نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله

فالجهاد نوعان: الأول: جهاد باليد واللسان، وهذا يشترك فيه الكثير. الثاني: جهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهم العلماء، وهو أفضل الجهادين، يعظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه.

قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (الفرقان: ٥٢)

يقول ابن القيم –رحمه الله– كما في" زاد المعاد:٥٨/٣" في حديثه عن الآية السابقة:

ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله" وَجَاهِدْهُم بِهِ "أي: بالقرآن." جِهَاداً كَبِيراً " فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو: التبليغ وجهاد الحجة. أه

فجهاد السيف الكل يحسنه، أما جهاد الحجة والتبليغ والبيان لا يحسنه إلا قلة من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم وهو أكبر الجهادين، وهو أيضا جهاد المنافقين وقد قال رب العالمين في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التوبة: ٧٣) ومعلوم أن المنافقين كانوا في الظاهر مع المسلمين، فعلم أن جهادهم يكون بالحجة والقرآن"

وقال شيخ الإسلام--رحمه الله-- كما في مجموع الفتاوى ٢٨٤/١٨:

وهكذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٠)

يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه، أو أوقعه في معصية، ثم هجر السيئات، وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل والله سبحانه وتعالى أعلم. أه

ومما يدل على أن العلم جهاد في سبيل الله:

ما أخرجه ابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من جاء مسجدي، هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه، أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره". (صحيح الجامع: ٦١٨٤)

ومما يدل أيضا على أن طلب العلم جهاد في سبيل الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢)

قال ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "مفتاح دار السعادة ١/٢٣٧": ندب الله تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين، وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم، وهو التعليم. وقد اختلف في الآية، فقيل: المعنى: أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفروا من كل فرقة منهم طائفة، تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم.

وقالت طائفة أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد، وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد، قال الله تعالى: ﴿ انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ٤١)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"(رواه البخاري ومسلم). وهذا هو المعروف من هذه اللفظة. وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في الدين، وتعلمه، وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه. أه

١٧– الناس أموات وأهل العلم أحياء

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠–١١)

يقول ابن القيم –رحمه الله–: في كتابه" مفتاح دار السعادة: ١/٢٤٥":

إن الله سبحانه وصف أهل النار بالجهل، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون. والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث، وهي: العقل والسمع والبصر، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧)

فقد وصف الله أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام، وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقرا، وعلى أبصارهم غشاوة. وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم، كما أنه يحب أهل العلم، ويمدحهم ويثني عليهم. أه

١٨- أهل العلم أكثر الناس استجابة لأوامر الله، وأكثر الناس انتفاعا بها

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٣) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠-٢٣)

يقول ابن القيم -رحمه الله- في كتابه " مفتاح دار السعادة: ١/٢٣١": قوله تعالى:(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (الأنفال: ٢٢)، أخبر أن الجهال شر الدواب عنده، على اختلاف أصنافها من الحمير، والسباع، والكلاب، والحشرات، وسائر الدواب، فالجهال شر منها، وليس على دين الرسل أضر من الجهال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة. وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه: ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٥)، وقال كليمه موسى -عليه السلام-: ﴿ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (البقرة: ٦٧)، وقال لأوّل رسله نوح -عليه السلام-: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هود: ٤٦) فهذه حال الجاهلين عنده. أه

وقال -رحمه الله- أيضا في كتابه مفتاح دار السعادة: ١/٧٨-٧٩:

إن الإنسان إنما يميز عن غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه، وأقوى بطشا، وأكثر جماعا وأولادا، وأطول أعمارا، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب، وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضل عليهم، بل قد يبقى شرا منهم، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٢)، فهؤلاء هم الجهال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي ليس عندهم محل قابل للخير "وَلَو "كان محلهم قابلا للخير "لَّأَسْمَعَهُمْ" أي لأفهمهم، والسمع هنا سمع فهم، وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم "وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ"

كما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب، وهذه هي الثانية. والمقصود: أن الإنسان إذا لم يكن له علمٌ بما يصلحه في معاشه ومعاده، كان الحيوان البهيم خيرا منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل. أه

١٩- العلم حياة للقلوب، ونور للأبصار

فحياة الإنسان روحها العلم، وهذه هي الحياة الحقيقية، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢). فأخبر الله تعالى بأن العلم روح تحصل به الحياة، فجمع العلم بين الأصلين الحياة والنور.

كما قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

يقول ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "مفتاح دار السعادة:١/٢٣١":

إن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور والحياة، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء، ويبين مراتبها، والحياة هي المصححة لصفاتِ الكمالِ، والموجبة لتسديد الأقوالِ والأفعالِ والأعمالِ، وكل ما تصرف من الحياة فهو خير كله، كالحياءِ، الذي سببه كمال حياةِ القلبِ وتصوره حقيقة القبحِ ونفرته منه، وضده الوقاحة والفحش، وسببه موت القلبِ، وعدم نفرته من القبيح، وكالحيا الذي هو المطر الذي به حياة كل شيء، قال تعالى: (أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) كان ميتا بالجهل قلبه فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورا يمشي به في الناس. أه

وقال السعدي –رحمه الله– في تفسيره ص٢٣٤:

يقول تعالى:(أَوَ مَن كَانَ) من قبل هداية الله له، (مَيْتاً) في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي. (فَأَحْيَيْنَاهُ)، بنور العلمِ والإيمانِ والطاعةِ، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفاً للخير، مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر، مبغضا له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلماتِ، ظلماتِ الجهل والبغي، والكفر والمعاصي. لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا "، قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالى، العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي الليل والنهار، والضياءُ والظلمةُ، والأحياءُ والأمواتُ.

فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مُسكةٍ من عقلٍ، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلماتِ متحيراً: فأجاب بأنه:(زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها، ورأوها حقا، وصار ذلك عقيدةً في قلوبهم، وصفةً راسخةً ملازمةً لهم؛ ولذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح. أه

وأخيراً: أحبتي في الله:

بعد هذه الجولة مع آيات ربنا في فضل العلم، يتبين لنا أن طلب العلم شرف ونور وفضيلة، وأن الجهل شر وبلاء ورذيلة، وأن العلم النافع مصدر الفضائل وينبوعها، وأن الجهل مكمن الرذائل وبؤرتها، وأن العلم أعذب الموارد ومجمع الشوارد وأنه بالعلم النافع يتحقق للأفراد والمجتمعات بناء الأمجاد وتشييد الحضارات، كما أنه بالجهل تتزعزع الأركان ويتصدع عامر البنيان ويحل الدمار ببني الإنسان.

فالعلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، والعلم عوض من كل لذةٍ، ومغنٍ عن كل شهوةٍ، فلهذا ولغيره حثنا الشرع الحكيم بطلب العلم وسلوك سبيله والعمل على تحصيله، فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغبا، ولمن رغب فيه أن يكون طالبا، ولمن طلبه أن يكون مستكثرا، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا (انظر أدب الدنيا والدين ص ٤١-٥٣)

فاللهم زدنا علما، واجعلنا من العالمين العاملين.... وارزقنا الإخلاص في القول والعمل والسر والعلن.

أمين يارب العالمين

ثانيا: فضل العلم من كلام الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم

١- العلم فرض على كل مسلم

لابد أن نعلم جميعا أن طلب العلم ليس من باب النافلة، أتعلم أو لا أتعلم، لا بل هو واجب على كل مسلم.

وذلك للحديث الذي أخرجه ابن ماجه وابن عدي في الكامل، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم[١] " (صحيح الجامع: ٣٩١٣)

وفي رواية عند ابن عبد البر عن أنسرضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر"

(صحيح الجامع: ٣٩١٤)

وفي رواية أبي يعلى " صاحب العلم يستغفر له كلُ شيء، حتى الحوت في البحر" (صحيح الجامع: ٣٧٤٧)

يقول ابن القيم –رحمه الله––في كتابه "مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٨٠"

"إن الإيمان فرض على كل واحد، وهو ماهية مركبة من علم وعمل، فلا يُتصور وجودُ الإيمان إلا بالعلم والعمل. ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، فطلب العلم فريضة على كل مسلم. وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه؟. أه

ومما ينسب للإمام الشافعي –رحمه الله–:

سأطلب علما أو أموت ببلدة يقل بها هطل الدموع على قبري

وليس اكتساب العلم يا نفسُ فاعلمي بميراث آباء كرام ولا صهرِ

ولكن فتي الفتيان من راح واغتدى يطلب علما بالتجلد والصبرِ

فان نال علماً عاش في الدنيا ماجداً وإن مات قال الناس بالغ في العذرِ

إذا هجع النوّام أسبلت عَبرتي وأنشدت بيتا وهو من ألطف الشعرِ

---

[١]– زيادة "مسلمة" في الحديث، والتي اشتهرت على ألسنة الناس فلا أصل لها، وحديث "اطلبوا العلم ولو في الصين " فباطل– انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٤١٦).

أليس من الخسران أن ليالينا تمر بلا علم وتحسب من عمريِ

وقال آخر:

إذا مر بي يومٌ ولم استفد هدى ولم اكتسب علما فما ذاك من عمري

وقال آخر:

ففزْ بعلم تعش حيا به أبدا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

٢- العلم ميراث الأنبياء عليهم السلام -:

فقد أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرةرضي الله عنه " أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق! ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقَسّم، وأنتم ها هنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة! قد أتينا المسجد فدخلنا فيه، فلم نر فيه شيئا يقسم، فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحدا؟ فقالوا: بلى، رأينا قوما يصلون، وقوما يقرؤون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم! فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم "

(حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ٨٣)

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا، ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر[1]" (صحيح الجامع: ٦٢٩٧)

قال ابن جماعة في كتابه " تذكرة السامع والمتكلم ص٤٣"عند هذا الحديث:

وحسبك بهذه الدرجة مجداً وفخراً، وبهذه الرتبة شرفا وذكرا، فكما لا رتبة فوق النبوة، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة.

قال ابن حبان في كتابه "الإحسان: ٢٩٠/١ ": في هذا الحديث بيان واضح أن العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرنا، هم الذين يُعَلَمون علم النبي صلى الله عليه وسلم، دون غيره، ألا تراه يقول: " العلماء ورثه الأنبياء " والأنبياء لم يورثوا إلا العلم، وعلم نبينا سنته، فمن تعري عن معرفتها، لم يكن من ورثة الأنبياء. أه

[1]- حظ وافر: أي نصيب تام

وصية النبي صلى الله عليه وسلم بطلبة العلم

كان النبي صلى الله عليه وسلم في حياته يرحب بطلبة العلم ويفرح بهم

كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والطبراني في الكبير واللفظ له من حديث صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد متكئ على برد[1] له أحمر، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال: "مرحبا بطالب العلم، وإن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب"

(صحيح ابن ماجه: ١٨٦) (صحيح الترغيب والترهيب: ٧١)

وعند الترمذي وابن ماجه بلفظ " ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم، إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضى بما يصنع. " (صحيح ابن ماجه: ٨٥)

ووصى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ومن سيأتي بعدهم أن يهتموا بطلبة العلم ويعلموهم ويفتوهم.

فقد أخرج ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدريرضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبا بوصية رسول الله، وأفتوهم – وفي رواية– واقنوهم[2]

(صحيح الجامع: ٣٦٥١) (الصحيحة: ٢٨٠)

وفي رواية عند الحاكم عن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه أنه كان يقول لطلبة الحديث" مرحبا بوصية رسول الله، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصينا بكم" (السلسلة الصحيحة: ٢٨٠)

ففي هذه الأحاديث تجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفرح بطلبة العلم، ويوصى بهم خيرا، وهذا يدل على علو قدرهم، وعظم شأنهم، وشرف مطلوبهم.

وأخرج الترمذي والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: كان أخوان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أحدهما يأتي النبي صلى الله عليه وسلم –وفي رواية يحضر حديث النبي..... ومجلسه–والآخر يحترف[3] فشكا المحترف أخاه إلى النبي.... فقال يا رسول الله! إن هذا أخي لا يعينني بشيء، فقال له النبي: لعلك ترزق به"

---

[1] – البرد: ثوب مخطط، وهو أيضا كساء من الصوف الأسود يلتحف به.

[2] – واقنوهم: يعني علموهم–كما قال الحكم "أحد رواة الحديث".

[3] – يحترف: أي يعمل في حرفة معينة.

٣- بالعلم يُعرَفُ اللهُ ويعبد ويوحد، وهو نجاة في الدنيا من الشهوات والشبهات:

فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، وعالما أو متعلما" (صحيح الجامع: ٣٤١٤)

يقول ابن القيم -رحمه الله-: في كتابه مفتاح دار السعادة ١/٢٦٩:

لما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة، كانت-وما فيها-في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة، و هو سبحانه إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرا إليها يتزود منها عباده إليه، فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنا لإقامة ذكره ومفضيا إلى محابه، وهو العلم الذي به يُعرف الله، ويُعبد، ويُذكر، ويُثنى عليه، وبه يمجد، ولهذا خلقها وخلق أهلها، كما قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: ٥٦) وقال تعالى: " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً " (الطلاق: ١٢)

فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السماوات والأرض وما بينهما ليُعرف بأسمائه وصفاته، وليُعبد.

فهذا المطلوب وما كان طريقا إليه من العلم والتعليم لهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك ما أفضى إليه، وما عداه فهو مبغوضٌ له، مذموم عنده. أه

وقال الألباني -رحمه الله- في" صحيح الترغيب والترهيب: ١/٣٤ "

والمراد بالدنيا هو كل ما يشغل عن الله تعالى ويبعد عنه، والمراد بالموالاة: هي المحبة أي: إلا ذكر الله وما أحبه الله تعالى مما يجري في الدنيا، أو تأتي الموالاة بمعنى المتابعة، فالمعنى: ما يجري على موافقة أمره تعالى أو نهيه. ويحتمل أن يراد: وما يوافق ذكر الله، أي: يجانسُه ويقاربه، فطاعته تعالى واتباع أمره واجتناب نهيه، كلها داخلة فيما يوافق ذكر الله، والله أعلم. أه بتصرف واختصار

٤- العلم نفعه متعدي، بخلاف العبادة فنفعها لا يتعدى صاحبها:

فقد أخرج الطبراني في الأوسط والبزار من حديث حذيفة بن اليمانرضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة[1]، وخير دينكم الورع " (صحيح الجامع: ٤٢١٤)

---

١ - وفي رواية: "فضل العلم خير من فضل العبادة"

وقال البغوي –رحمه الله– في " شرح السنة:١/٣٧٨":

وفضل العلم على العباد من حيث أن نفع العلم يتعدى إلى الخلق كآفة، وفيه إحياء الدين، وهو تلْوُ البنوة".

يقول عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل: قلت لأبي، أتهجد بالليل أو أكتب العلم؟ فقال لي أبي: اكتب العلم.

قال الحافظ الدمياطي –رحمه الله––تعليقا على كلام الإمام أحمد –رحمه الله–:

وإنما قال له ذلك، لأن كتابة العلم يتعدى نفعها إلى غيره، فله أجره وأجر من انتفع بذلك في حياته وبعد موته أبدا، وأما التهجد فليس له إلا أجره فقط، والله أعلم. أه

ويقول الشيخ محمد خليل هراس –رحمه الله– في الحديث السابق:

وقوله صلى الله عليه وسلم: "فضل العلم خير من فضل العبادة "لأن قليل العبادة مع العلم خير من كثير العبادة مع الجهل، فكانت زيادة العلم خيرا من زيادة العبادة. وقوله صلى الله عليه وسلم: "وخير دينكم الورع "يعني أن الزهد والكف عن المحارم واجتناب الشبهات هو خير شعب هذا الدين وأفضلها"(تعليق محمد خليل هراس –رحمه الله–على الترغيب والترهيب:١/٩٣)

ويبين ابن القيم –رحمه الله– في كتابه " مفتاح دار السعادة:١/٢٦٩"، الفارق بين العالم والعابد، فقال –رحمه الله–: "العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه، ويهدم ما يبنيه، فكلما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة، حال العالم بينه وبين ذلك، فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة، ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم، ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة. وأما العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه في خاصة نفسه، وهيهات له ذلك"

وقد ذكر ابن القيم––رحمه الله– في كتابه السابق: ١/٦٩، عن المزني –رحمه الله––أنه قال:

روي عن ابن عباس– رضي الله عنهما–أنه قال: إن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدنا، ما لنا نراك تفرح بموت العالم، لا تفرح بموت العابد، والعالم لا نصيب منه، والعابد نصيب منه؟ قال: انطلقوا، فانطلقوا إلى عابد فأتوه في عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك فانصرف، فقال إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا أدري، فقال إبليس: أترونه كفر في ساعة. ثم جاءوا إلى عالم في حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم، فقالوا: إنا نريد أن نسألك، فقال: سل. فقال: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ قال: نعم. قالوا: كيف؟ قال: يقول: كن فيكون. فقال: أترون، ذلك لا يعدو نفسه، وهذا يفسد عليّ عالَماً كثيرا. أه

وقد رُوي عن عمررضي الله عنه أنه قال: موت ألف عابد أهون من موت عَالِم بصير بحلال الله وحرامه.

قال ابن القيم –رحمه الله–: في كتابه مفتاح دار السعادة ٣٩٨/١ "معلقاً على قول عمررضي الله عنه: ووجه قول عمررضي الله عنه، أن هذا العَالِم يهدم على أبليس كل ما يبنيه بعلمه وإرشاده، وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه. أه

٥– طالب العلم ينفع نفسه وينتفع به غيره:

ودليل ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنهعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"مثل ما بعثني الله به من الهدى[١] والعلم[٢] كمثل الغيث[٣] الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية[٤] قبلت الماء[٥] فأنبتت الكلأ[٦] والعشب[٧] الكثير وكانت منها أجادب[٨] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان[٩] لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه[١٠] في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا[١١] ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– في" فتح الباري ٢١٢/١ ":

قال القرطبي وغيره من شراح الحديث: ضَرَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت فنفعت غيرها. ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع، لكنه أداه لغيره، فهو

---

[١] – الهدى: هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب

[٢] – العلم: معرفة الأدلة الشرعية.

[٣] – الغيث: المطر الذي يأتي عند الاحتياج إليه

[٤] – نقية: طيبة

[٥] – قبلت الماء: أي شربته

[٦] – الكلأ: نبات الأرض، رطبا كان أم يابسا

[٧] – العشب: النبات الرطب، فعطفه عليه من باب عطف الخاص على العام.

[٨] – أجادب: جمع جدب، وهي الأرض الصلبة التي لا تشرب الماء ولا تنبت الكلأ، وقيل هي الأرض التي لا نبات بها، مأخوذ من الجدب وهو القحط.

[٩] – قيعان: بكسر القاف جمع قاع، وهي الأرض المستوية الملساء، وقيل: التي لا نبات فيها، وهو المراد هنا. فذلك: النوع الأول.

[١٠] – فقه: أي: صار فقيها، بفهمه شرع الله عز وجل.

[١١] – من لم يرفع بذلك رأسا: كناية عن شدة الكبر والأنفة عن العلم والتعلم.

بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به. ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفراد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها.

قال ابن القيم –رحمه الله– كما في كتابه مفتاح دار السعادة ١/٢٤٧:

" شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذي جاء به بالغيث، لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد، فإنها بالعلم والمطر. وشبه القلوب بالأراضي التي يقع عليها المطر لأنها المحل الذي يمسك الماء، فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو، وتظهر بركته وثمرته. ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه، وفهم معانيه واستنباط أحكامه، واستخراج حكمه وفوائده: أحدهما: أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه، وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء–وهذا بمنزلة الحفظ–فأنبتت الكلأ والعشب الكثير–وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط–فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء، وهذا مثل الحفاظ الفقهاء، وأهل الرواية والدراية.

القسم الثاني: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه، ولم يرزقوا تفقهاً في معانيه ولا استنباطاً ولا استخراجاً لوجوه الحكم والفوائد منه، فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعي حروفه وإعرابه ولم يرزق فيه فهماً خاصا عن الله، كما قال علي بن أبي طالبٍرضي الله عنه: "إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه" (رواه البخاري)

والناس متفاوتون في الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوتٍ، فرُب شخصٍ يفهم من النص حكماً، أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائةً أو مائتين. فهؤلاء بمنزلةِ الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشربُ منه، وهذا يسقي منه، وهذا يزرع. فهذان القسمان هم السعداء، والأولون أرفع درجةً وأعلى قدراً (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الجمعة:٤)

القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم منه، لا حفظاً ولا فهماً، ولا روايةً ولا درايةً، بل هم بمنزلةِ الأرض التي هي قيعان، لا تنبت ولا تمسك الماء، وهؤلاء هم الأشقياء. والقسمان الأولان اشتركا في العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل إليه، فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه، والقسم الثالث لا علم ولا تعليم، فهم الذين لم يرفعوا بهدي الله رأساً، ولم يقبلوه، وهؤلاء شر من الأنعام، وهم وقود النار.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم، وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله. وذكر أقسام بني آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم، وتقسيم سعيدهم إلى سابقٍ مقربٍ وصاحب يمين مقتصد. وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلةِ الأرض التي فقدت الغيث. أه باختصار

وقال الإمام النووي--رحمه الله--في شرح هذا الحديث:

أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بالغيث ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس؛ فالنوع الأول من الأرض: ينتفع بالمطر فيحيي بعد أن كان ميتا وينبت الكلأ فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه، ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع. النوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة وهي: إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوبا حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغوا. النوع الثالث من الأرض: وهي السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم. وفي هذا الحديث أنواع من العلم منها: ضرب الأمثال، ومنها: فضل العلم والتعليم. وشده الحث عليهما وذم الإعراض عن العلم. والله أعلم. أه

٦- من أراد الله به خيرا فقهه في الدين، وفتح له طريقا لطلب العلم:

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنهقال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "الخير عادة[١]، والشر لجاجة[٢]، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (الصحيحة:٦٥١) (صحيح الجامع: ٦٦١١)

---

[١] - الخير عادة: أي المؤمن الثابت ينشرح صدره للخير فيصير له عادة.

[٢] - الشر لجاجة: أي الشر لا ينشرح له صدر المؤمن ولا يدخل قلبه إلا بلجاجة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء. واللجاجة: الخصومة

في رواية عند البخاري ومسلم عن حميد بن عبد الرحمن: سمعت معاويةرضي الله عنه خطيبا يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله"- وفي رواية-ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة، حتى يأتي أمر الله.

يقول ابن القيم -رحمه الله- كما في" مفتاح دار السعادة: ١/٢٤٦"

وهذا الحديث يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرا، كما أن من أراد به خيرا فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيرا، إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل. أه

وقال الإمام النووي -رحمه الله- – كما في شرح مسلم: ١٢٧/٧

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين "فيه فضيلة العلم والتفقه في الدين، والحث عليه، وسببه أنه قائد إلى تقوى الله عز وجل. وقوله صلى الله عليه وسلم "إنما أنا خازن"-وفي رواية-"وإنما أنا قاسم ويعطي الله" معناه: أن المعطي حقيقة هو الله تعالى، ولست أنا معطيا، وإنما أنا خازن على مما عندي ثم أقسم ما أمرت بقسمته على حسب ما أمرت به، فالأمور كلها بمشيئة الله- تعالى- وتقديره. أه

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في" فتح الباري: ١/٢٨٥ "عن الحديث السابق

هذا الحديث مشتمل على ثلاثة أحكام: أولها: فضل التفقه في الدين. وثانيها: أن المعطي في الحقيقة هو الله. وثالثها: أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبدا. أه

وأخرج الطبراني في الكبير عن معاويةرضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يا أيها الناس: إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (فاطر: ٢٨) (صحيح الترغيب والترهيب: ٦٧)

٧- طالب العلم عَدل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أخرج البيهقي والدارقطني والطبري عن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين[١]، وانتحال المبطلين[٢]، وتأويل الجاهلين.

---

[١] – الغالين: المتشددين.

[٢]– انتحال المبطلين: ادعاءات أهل الباطل وزورهم.

يقول ابن القيم –رحمه الله– في مفتاح دار السعادة: ١/٤٩٥: "أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب. وهذا يتضمن تعديله صلى الله عليه وسلم لحملة العلم الذي بعث به، وهو المشار إليه في قوله: "هذا العلم" فكل من حمل العلم المشار إليه لابد وان يكون عدلا، ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا افتراء. ولا ريب أن من عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع فيه جرح، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم. فما حمل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عدل ولكن قد يغلط في مسمى العدالة، فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له، وليس كذلك، بل هو عدل مؤتمن على الدين، وإن كان فيه ما يتوب إلى الله منه، فإن هذا لا ينافي الإيمان والولاية. أه

٨– طالب العلم العامل هو بأفضل المنازل عند الله –عز وجل–:

فقد أخرج الترمذي وأصله في مسلم عن أبي كبشة الأنماريرضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فأحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر–أو كلمة نحوها– وأحدثكم حديثا فأحفظوه. قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا. فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علم فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء".

فالنبي صلى الله عليه وسلم قسم الناس في هذا الحديث إلى أربعة أقسام، خيرهم من أُوتيَ علما ومالا، فهو محسن إلى الناس بعلمه وماله، ويليه في المرتبة من أوتي علما ولم يؤت مالا، وإن كان أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية.

والثالث: من أوتي مالا ولم يؤت علما، والرابع من لم يؤت مالا ولا علما ونيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله. فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته.

٩- طالب العلم حريص على ما ينفعه في دينه ودنياه:

فقد أخرج البخاري عن أبي هريرةرضي الله عنه أنه قال: قيل يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه[١] ".

١٠- طالب العلم بمنزلة الحاج المحرم:

-وأخرج الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من غَدَا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلَّم خيراً أو يُعلِّمه كان له كأجرِ حَاجٍّ تامّ حَجَّتُه" (صحيح الترغيب والترهيب: ٨٦)

١١- طالب العلم بمنزلة المجاهد في سبيل الله:

- أخرج ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه، أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره" (صحيح الترغيب والترهيب: ٨٧) (صحيح الجامع: ٦١٨٤)

يقول الشيخ خليل هراس في تعليقه على" الترغيب والترهيب: ١/١١٣":

قوله صلى الله عليه وسلم: "فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله" أي: في درجة المحاربين لإعلاء كلمة الله، ولا شك أن طلب العلم النافع وتعليمه لمن يطلبه، هو نوع من الجهاد، فإن الجهاد لا يكون بالسيف وحده، بل بالبيان والموعظة وإقامة البرهان. وقوله صلى الله عليه وسلم "فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره "يعني: لاحظَّ له من هذا الخير إلا النظر، كما ينظر الفقير المحروم إلى ما عند الأغنياء من عَرَضٍ ومتاع. أه

- وأخرج الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع " (صحيح الترغيب والترهيب: ٨٨)

١٢- طالب العلم المجتهد يؤويه الله ولا يعرض عنه:

ودليل ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي واقد الليثيرضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر[٢] فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه

---

[١] - أو في نفسه: شك من الراوي.

[٢] - النفر: عدة رجال من الثلاثة إلى العشرة.

وسلم وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما: فرأى فرجة[1] في الحلقة[2] فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه"

قال ابن القيم –رحمه الله– في كتابه مفتاح دار السعادة: ١٠٣/١: "لو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا"

١٣– طالب العلم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بنضارة الوجه:

فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" نَضَّرَ[3] اللهُ عبداً سمع مقالتي، فوقاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" (صحيح الجامع: ٦٧٦٥)

وأخرج أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن مسعودرضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" نَضَّرَ اللهُ امرأ سمع منا شيئا، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع " (صحيح الجامع: ٦٧٦٤)

وعند الإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نضر الله أمرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغل[4] عليهن قلب مسلم أبدا: إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة

---

[1] – الفرجة: فراغ بين شيئين.

[2] – الحلقة: كل مستدير خالي الوسط.

[3]– نَضَّرَ: بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها، حكاه الخطابي، ومعناه: الدعاء له بالنضارة، وهي النعمة والبهجة والحسن، فيكون تقديره جمله الله وزينه، وقيل غير ذلك.

[4] – يُغلُّ: قال ابن الأثير –رحمه الله–: هو من الإغلال، الخيانة في كل شيء.

ويروى: يَغِلُّ بفتح الياء من الغل والحقد والشحناء، أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق. وروى: يغل بالتخفيف: من الوغول: الدخول في الشر.

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر. (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٣٨١/٣)

وقال الألباني: "قوله: "لا يغل" يروى بفتح الياء وضمها، فمن فتح جعله من الغل، وهو الضغن والحقد، يقول: لا يدخله حقد يزيله عن الحق، ومن ضم جعله من الخيانة، والإغلال: الخيانة في كل شيء، كذا في "الكواكب الدراري" لابن عروة الحنبلي: ٢٢٣/١" (صحيح الترغيب والترهيب: ٤٠/١)

الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم" (صحيح الجامع: ٦٧٦٣-٦٧٦٦) (صحيح الترغيب والترهيب: ٩٠)

يقول ابن القيم –رحمه الله– في كتابه " مفتاح دار السعادة:١/٢٧٤"عند شرحه للحديث السابق: "إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة–وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه–ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن حفظ كلامه ووعاه، وحفظه وبلغه، وهذه هي مراتب العلم. أولها وثانيها: سماعه وعقله؛ فإذا سمعه وعاه بقلبه؛ أي: عقله واستقر قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدرا زائدا على مجرد إدراك المعلوم. المرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

المرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده؛ وهو بثه في الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه وهو معرض لذهابه، فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب، فإن أنفق منه نما وزكا على الإنفاق.

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن، فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه، ولهذا يجمع له سبحانه بين السرور والنضرة، كما في قوله تعالى: " فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً "(الإنسان:١١) فالنضرة في وجوههم، والسرور في قلوبهم، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة في الوجه، كما قال تعالى: " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ " (المطففين: ٢٤) والمقصود أن هذه النضرة في وجه من سمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها–هي أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه" تنبيه على فائدة التبليغ، وأن المُبلِّغ قد يكون أفهم من المبلغ، فيحصل له في تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ. أو أن يكون المعنى: أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ، فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها. أه باختصار

١٤- طلب العلم سبب لنزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة، وذكر الله لطالب العلم في الملأ الأعلى:

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من نفس[1] عن مؤمن كربة[2] من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر[3]، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما[4]، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس[5] فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله[6]، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة[7] وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عملُهُ[8]، لم يسرع به نسبُهُ"

قال النووي –رحمه الله– في شرحه على مسلم: ٢١/١٧: "حديث أبي هريرة رضي الله عنه "من نفس عن مؤمن كربة" إلى آخره، هو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، ومعنى نفس الكربة، أزالها، وفيه فضيلةُ قضاءِ حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك، وفضل الستر على المسلمين، وفضل إنظار المعسر، وفضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، إن هذا كان شرطا في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به، لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس ويغفل عنه بعض المبتدئين وغيرهم. أهـ

١٥– طلب العلم يزيد من قدر وشرف صاحبه:

أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

[1] – نَفَّس: بتشديد الفاء أي: فرج وأزال.

[2] – كربة: هي في أصل اللغة، ما يأخذ النفس من الغم، والمعنى: فرج وأزال هما واحدا من هموم الدنيا.

[3] – المُعْسِرُ: هو من ركبه الدين وتعسر عليه قضاؤه بالإنذار أو بالإبراء، أو يراد بالعسر مطلق الفقر.

[4] – ستر مسلما: أي ستر بدنه باللباس، أو ستر عيوبه عن الناس.

[5] – يلتمس: يطلب

[6] – في بيت من بيوت الله: أي: مسجد أو مدرسة أو رباط فلذلك لم يقل من المساجد.

[7] – السكينة: ما يسكن إليه القلب من الطمأنينة والوقار والثبات وصفاء القلب.

[8] – من بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه: معناه: من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي ألا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل، بل يقدم العامل بالطاعة ولو كان عبدا حبشيا، على غير العامل ولو كان شريفا قرشيا. وهذا معنى قوله تعالى (إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات:١٣)

"تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[1]، وتجدون خير الناس في هذا الشأن[2] أشدهم له كراهية". وفي رواية–وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه، وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين والذي باقي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

وفي رواية عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: "أتقاهم"، فقالوا ليس عن هذا نسألك. قال: "فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله"، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فعن معادن العرب تسألون، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله––كما في فتح الباري: ٦/٦١٢:

وقوله صلى الله عليه وسلم:" تجدون الناس معادن" أي: أصولا مختلفة، والمعادن: جمع معدن، وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيسا، وتارة يكون خسيسا، وكذلك الناس.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام" وجه التشبيه: أن المعدن لما كان إذا استُخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية.

وأما قوله: "إذا فقهوا"، ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين. أه

وهذه الأحاديث تدل على أن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خير الناس، بخلاف من أسلم ولم يتفقه، وهذا يدل على شرف ومكانة العلم، وأنه يرفع الناس درجات.

١٦– طلب العلم يكسب صاحبه الحجة والبيان والبرهان

فقد أخرج الحاكم عن الحسن–رحمه الله–قال: بينما عمران بن حصين رضي الله عنه يحدث عن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال له رجل: يا أبا نُجيد حدثنا بالقرآن[3]، فقال له عمران، أنت وأصحابك

---

[1] – فقهوا: بضم القاف على المشهور، وحُكي كسرها، أي: صاروا فقهاء عالمين بالأحكام الشرعية الفقهية. (شرح النووي على مسلم: ١٥/١٣٥)

[2] – تجدون خير الناس في هذا الشأن: أي الولاية والإمرة.

[3]– هذا الفكر كان قديما ومازال ينتقل من جيل إلى جيل حتى وصل إلينا. وخرج علينا هؤلاء الذين يُسمَّون بالقرآنين والنبي صلى الله عليه وسلم حذر من أمثال هؤلاء كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن المقدام بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدث بحديث من

يقرؤون القرآن، أكنت محدثي عن الصلاة وما فيها وحدودها؟، أكنتَ مُحَدِّثِي عن الزكاة في الذهب والإبل والبقر وأصناف المال؟ ولكن قد شهدت وغبت أنت، ثم قال: فرض علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الزكاة كذا وكذا، وقال الرجل أحييتني أحياك الله، قال الحسن: فما مات ذلك الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين " (صححه الحاكم ووافقه الذهبي)

١٧- طلب العلم خير ما يسعى إليه الإنسان، وأفضل ما يمدح به:

فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا[1] أنا نائم، أتيت بقدح لبن، فشربت حتى إني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب" قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: "العلم"

وقال ابن حجر -رحمه الله- في" فتح الباري: ٥٦/٧"ووجه التعبير بذلك-أي: تأويل اللبن بالعلم-من جهة اشتراك اللبن والعلم في كثرة المنافع، وكونهما سببا للصلاح، فاللبن للغذاء البدني، والعلم للغذاء المعنوي"

ولذلك كان أفضل ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس- رضي الله عنهما -أن يفقهه الله في الدين.

واخرج البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما -قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم الخلاء فوضعت له وَضوءاً. قال: "من وضع هذا؟" فأخُبر. فقال: "اللهم فقهه في الدين" وفي لفظ آخر قال: ضمني. وقال: "اللهم علمه الكتاب"

١٨- تعلم العلم وتعليمه سبيل لمضاعفة الأجر والثواب:

ودليل ذلك ما أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه -رضي الله عنهما -عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من علم علما فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل شيء"

(صحيح ابن ماجه:١٩٧) (صحيح الترغيب والترهيب: ٨٠)

حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله-عز وجل-فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله"

[1] - "بينا" أصله "بين" فأُشبعت الفتحة، وقوله: "لأرى" بفتح الهمزة من الرؤية أو من العلم، واللام للتوكيد، أو جواب قسم محذوف (قاله الحافظ ابن حجر في الفتح: ٢١٦/١)

قال الألباني –رحمه الله– في " صحيح الترغيب والترهيب:١/٣٧": ويشهد له في معناه حديث جرير رضي الله عنه: "من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء". رواه مسلم، وحديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه: "من دل على خير، فله أجر فاعله، أو قال عامله "

(رواه مسلم وأبو داود والترمذي والسياق له)

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا "

قال ابن القيم –رحمه الله–كما في" مفتاح دار السعادة: ١/٢٥١": أخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به؛ لأن هذا بذل قدرته في هداية الناس، وهذا بذل قدرته في ضلالهم، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام. وهذه قاعدة الشريعة؛ قال تعالى: " لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ " (النحل: ٢٥)، وقال تعالى: "وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ "(العنكبوت: ١٣)، وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عدوه حقا؛ لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان.

وللحرص على الأجر والثواب الحاصل من تبليغ هذا العلم فليسع كل إنسان أن يبلغ عن النبي صلى الله عليه وسلم ولو آية

وقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"بلغوا عني ولو آية[1]، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج[2]، ومن كذب عليَّ متعمدا، فليتبوأ[1] مقعده من النار"

---

[1] – وقوله "بلغوا عني ولو آية" أي: واحدة، ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل، ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به صلى الله عليه وسلم.

٢ – وقوله "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" أي: لا ضيق عليكم في الحديث عنهم لأنه كان تقدم منه صلى الله عليه وسلم الزجر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم، ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار. (فتح الباري: ٦/٥٧٥)

يقول ابن القيم –رحمه الله– في كتابه " مفتاح دار السعادة:١/٢٧٨": "أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه، لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ، وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب، فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ما له من أجر عمله المختص به، فكل من هدي واهتدى بتبليغه فله الأجر، لأنه هو الداعي إليه، ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم لكفى به فضلا. وعلامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه، ويبذل جهده وطاقته فيها. ومعلوم أنه لا شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة، فالمبلغ عنه ساع في حصول محابه، فهو أقرب الناس منه، وأحبهم إليه، وهو نائبه وخليفته في أمته، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم.

ولعل هذا البلاغ في هداية انسان، وهذا فيه ما فيه من الخير الكبير والثواب الجزيل.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ له عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر:

"لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، "، قال: فبات الناس يدركون ليلتهم[٢] أيهم يعطاها. قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم يرجون أن يعطاها. فقال: "أين علي بن أبي طالب"، فقالوا: هو، يا رسول الله، يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن بها وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا[٣]؟ فقال: انفذ على رسلك[٤]، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم[٥] "

---

١ – وقوله " فليتبوأ " أي: فليتخذ لنفسه مترلا، يقال: تبوَّأ الرجلُ المكان إذا اتخذه سَكَناً، وهو أمر بمعنى الخبر، أو بمعنى التهديد، أو بمعنى التهكُّم، أو دعاء على فاعل ذلك، أي: بَوَّأه الله ذلك. (فتح الباري:١/٢٤٣)

٢ – "يَدُوكُونَ" بمهملة مضمومة أي: باتوا في اختلاط واختلاف، والدوكة بالكاف الاختلاط.

٣ – "حتى يكونوا مثلنا"، أي: حتى يسلموا.

٤ – وقوله صلى الله عليه وسلم "على رِسْلِكَ" بكسر الراء، أي: على هيئتك.

٥ – وقوله "حُمْرُ النَّعَمِ" بسكون الميم من حمر، وبفتح النون والعين المهملة، وهو من ألوان الإبل المحمودة، قيل: المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل: تقتنيها وتمتلكها، وكانت مما تتفاخر العرب بها. (انظر فتح الباري :٧/٥٤٥).

قال ابن القيم –رحمه الله– في كتابه" مفتاح دار السعادة:١/٢٥٠": "حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: "لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم"، يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله، بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم؛ وهي خيارها وأشرفها عند أهلها، فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طوائف من الناس؟!"

وقال النووي –رحمه الله– في" شرحه على مسلم:١٥/١٧٨": قوله صلى الله عليه وسلم: "فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم"، هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه، وتشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها لو تصورت، وفي هذا الحديث بيان فضيلة العلم والدعاء إلى الهدى وسن السنن الحسنة"

قال الحافظ بن حجر–رحمه الله– في" فتح الباري:٧/٥٤٥": وقوله: "فوالله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم"، يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

١٩– طالب العلم يباهي اللهُ به الملائكة:

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آلله، ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله، ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم[1]، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقلَّ عنه حديثا مني، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه، فقال: "ما أجلسكم؟ "قالو: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال: "آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ "قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: "أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني؛ أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة"[2].

قال ابن القيم –رحمه الله– في كتابه" مفتاح دار السعادة:١/٢٩٠":

"إن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم، ويذكرون الله ويحمدونه على ما من عليهم به منه. وهؤلاء–الذين ورد ذكرهم في الحديث–كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه،

---

[1] – وقوله " لم أستحلفكم تهمة لكم" قال النووي –رحمه الله–: هي بفتح الهاء وإسكانها، وهي فُعْلَةٌ وفُعَلَةٌ من الوهم، والتاء بدل الواو، واتَّهمتُه به إذا ظننت به ذلك.

[2] – وقوله " إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة" معناه: يظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم ويثني عليكم عندهم، وأصل البهاء الحسن والجمال، وفلان يباهي بماله أي يفخر، ويتجمل بهم على غيرهم ويظهر حسنهم. (شرح النووي على مسلم:١٧/٢٣)

ويثنون عليه بذلك، ويذكرون حسن الإسلام، ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومن عليهم برسوله.

وهذا أشرف علم على الإطلاق، ولا يعني به إلا الراسخون في العلم؛ فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله، ودينه، ورسوله، ومحبة ذلك، وتعظيمه والفرح به، وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهي الله بهم الملائكة.

وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي كان يحب سورة الإخلاص، وقال: أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل، فقال: "حبك إياها أدخلك الجنة" رواه البخاري، وفي لفظ آخر عند البخاري ومسلم: "أخبروه أن الله يحبه" فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة". أه

٢٠- طالب العلم العامل به والمعلم غيره، لا ينقطع أجره وثوابه بعد موته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ (يس: ١٢)

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته" (صحيح الجامع: ٢٢٣١)

وأخرج البزار عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته، من علم علما، أو أجرى نهرا-وفي رواية-أو كرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته" (صحيح الجامع: ٣٦٠٢).

وأخرج الإمام أحمد والبزار عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت: من مات مرابطا في سبيل الله، ومن علم علما، أُجرى له عمله ما عُمل به، ومن تصدق بصدقة فأجرها يجري له ما وجدت، ورجل ترك ولدا صالحا يدعو له" (صحيح الجامع: ٨٧٧)

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مات الإنسان انقطع عملُهُ إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له"-وفي رواية-"إذا مات ابن آدم انقطع عملُهُ إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له"

وفي رواية عن ابن ماجه من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير ما يخلف الرجل من بعده: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده - وفي رواية-وعلم ينتفع به من بعده" (صحيح الجامع: ٣٣٢٦)

-قال النووي -رحمه الله- في " شرحه على مسلم:١١/٨٥": "قوله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"

قال العلماء: معنى الحديث: أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، كذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية؛ وهي الوقف. وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح، وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه، وبيان فضيلة العلم والحث على الاستكثار منه والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع، وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهما مجمع عليهما، وكذلك قضاء الدين. أه

يقول عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–: قلت لأبي أتهجد بالليل أو اكتب العلم، فقال: اكتب العلم. فقال الحافظ الدمياطي –رحمه الله–تعليقا على كلام الإمام أحمد –رحمه الله–: وإنما قال له ذلك لأن كتابة العلم يتعدى نفعها إلى غيره فله أجره وأجر من انتفع بذلك في حياته وبعد موته أبدا، وأما التهجد فليس له إلا أجره فقط. والله أعلم. أه

فالحديث السابق من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله، وعظم ثمرته، فإن ثوابه يصل إلى المؤمن بعد موته مادام يُنْتَفع به، فكأنه حي لم ينقطع عمله.

٢١– العلم نعمة يغبط صاحبها عليها:

الناظر إلى فضل العلم في الأحاديث السابقة يجعلنا نتفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلمها"–وفي رواية عن ابن عمر رضي الله–رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار"

قال الحافظ–رحمه الله– في الفتح: قوله "لا حسد" أي لا رخصه في الحسد إلا في خصلتين، أو لا يحسن الحسد أن حسن، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين. أه

قال الإمام النووي–رحمه الله–كما في" شرحه على مسلم: ٦/ ٩٧": وقوله صلى الله عليه وسلم "لا حسد إلا في اثنتين" قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي، ومجازي.

فالحقيقي: تمنى زوال النعمة عن صاحبها[1]، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة. وأما المجازي: فهو الغبطة، وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحديث: لا غبطة محمودة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما.

---

[1] – استدرك الشيخ ابن عثيمين–رحمه الله–على هذا التعريف فقال: "الحسد هو كراهة ما أنعم الله به على العبد، وليس هو تمني زوال نعمة الله على الغير، بل هو مجرد أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره، فهذا هو الحسد، سواء تمنى زواله، أو أن يبقى ولكنه كاره له" (كتاب العلم صـــ٧١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "فسلطه على هلكته في الحق": أي انفاقه في الطاعات.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها" معناه: يعمل بها ويعلمها احتسابا، والحكمة: كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح. أه

وقد قال مجاهد في تعريف الحكمة بأنها: العلم والفقه والقرآن.

وقال الإمام مالك–رحمه الله–: إنه يقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله.

ونقل ابن القيم –رحمه الله– في كتابه" مفتاح دار السعادة:١/٢٢٧"عن ابن قتيبة والجمهور: أن الحكمة هي إصابة الحق، والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح.

وقال السعدي –رحمه الله– في " تفسيره: ص٦٥: والحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألقاب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال تعالى:" وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً" (البقرة: ٢٦٩)

٢٢– طلب العلم سبيل لدخول الجنة:

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حيان عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهَّل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العَالِم ليستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العَالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر"

(صحيح الترغيب والترهيب: ٧٠) (صحيح الجامع: ٦٢٩٧)

وفي رواية عند الإمام مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة" (صحيح الجامع: ٦٢٩٨)

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة" فالجزاء من جنس العمل، فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك.

في أحاديث سابقة تجد أن الملائكة تحف طالب العلم بأجنحتها، والحف بالأجنحة: حفظ وحماية وصيانة، وأما هذا الحديث (وهو وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم) فهذا يدل على تواضع وتوقير وتبجيل طالب العلم.

فتضمن هذا تعظيم الملائكة لطالب العلم وحبها إياه وحياطته وحفظه، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفا وفضلا.

قال ابن جماعة– رحمه الله–: واعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له وتضع له أجنحتها، وإنه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة. أه

ثالثا: فضل العلم من أقوال السلف

وبعد عرض فضل العلم من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة، نذكر بفضل وشرف العلم من أقوال السلف، لندرك أنه لا حياة للقلوب إلا في طلب العلم والعمل به.

١– قول عليٍّ رضي الله عنه في فضل العلم:

"محبة العلم دين يدان به" لأن العلم ميراث الأنبياء، والعلماء ورثتهم، وأيضا فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك دين يدان به.

وقوله: "العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته" أي يجعله مطاعا لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل إنسان للملوك فمن دونهم، فكل إنسان محتاج إلى طاعة العالم، فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته. قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ " (النساء: ٥٩) وفسر أهل العلم "أولي الأمر" بالعلماء، فإذا مات العالم، أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس.

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه، كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقا.

وقوله: "وصنيعة المال تزول بزواله" يعني كل صنيعة للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة فإنما هي لمراعاة ماله، فإذا زال ماله زالت تلك الصنائع كلها حتى ربما لا يسلم عليه من كان يدأب في خدمته، وكما قال بعض العرب: وكان بنو عمِّي يقولون مرحبا فلما رأوني معسرا مات مرحب

يقول ابن القيم –رحمه الله– في كتابه " مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٤٠–٤٤٨" عند شرح هذا الحديث "ذكر أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله، وهم أربعة:

أحدهم: من ليس بمأمون عليه، وهو الذي أوتي ذكاء وحفظا، ولكن مع ذلك لم يؤت زكاء، فهو يتخذ العلم (الذي هو آلة الدين) آلة للدنيا، يستجلبها به، ويتوسل بالعلم إليها، ويجعل البضاعة التي هي متجر الآخرة متجر الدنيا، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم، ولا يجعله الله إماما فيه قط؛ فإن الأمين هو الذي لا غرض له، ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته، فلا يدعو إلى قيام رياسته ولا دنياه، وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجرا للدنيا قد خان الله، وخان عباده وخان دينه، فلهذا قال: "غير مأمون عليه"

وقوله: "يستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على عباده" هذه صفة هذا الخائن؛ إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس، وإذا تعلم علما استظهر به على كتاب الله.

ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله: تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه. وهذه حال كثير ممن يحصل له علم؛ فإنه يستغني به ويستظهر به ويحكمه، ويجعل كتاب الله تبعا له، يقال: استظهر فلان على كذا بكذا، أي: ظهر عليه به وتقدم، فجعله وراء ظهره.

وليست هذه حال العلماء؛ فإن العالم حقا سيظهر بكتاب الله على كل ما سواه، فيقدمه ويحكمه، ويجعله إمامه، ويجعله عيارا على غيره، مهيمنا عليه، كما جعله الله تعالى كذلك.

فالمستظهر به موفق سعيد، والمستظهر عليه مخذول شقي، فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدما عليه ما استظهر به، وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفى بغيره منه، وقدم غيره وأخره.

الصنف الثاني من حملة العلم: المنقاد له الذي لم يثلج له صدره، ولم يطمئن به قلبه، بل هو ضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لأهله، وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء–وإن كانوا على سبيل النجاة–فليسوا من دعاة الدين، وإنما هم من مكثري سواد الجيش، لا من أمرائه وفرسانه.

وقوله: "ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة"؛ هذا لضعف علمه، وقلة بصيرته، إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب، بخلاف الراسخ في العلم؛ لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكا؛ لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة ومغلوبة.

الصنف الثالث: رجل همته في نيل لذته، فهو منقاد لداعي الشهوة أين كان، ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك، ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة.

الصنف الرابع: من حرصه وهمته في جمع الأموال وتثميرها وادخارها، فقد صارت لذته في ذلك، وفني بها عما سواه، فلا يرى شيئا أطيب له مما هو فيه، فأين هذا ودرجة العلم؟!

فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم، ولا من طلبته الصادقين في طلبه، ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه، المتشبهين بحملته وأهله، المدعين لوصاله، المبتوتين من حباله، وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون؛ فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم، ويقولون: لسنا خيرا منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم، فهم حجة لكل مفتون". أه ملخصا.

وقال الخطيب البغدادي –رحمه الله–: "هذا حديث حسن، من أحسن الأحاديث معنى، وأشرفها لفظا.

وتقسيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الناس في أوله تقسيم في غاية الصحة، ونهاية السداد، لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل؛ إما أن يكون عالما، أو متعلما، أو مغفِلا للعلم وطلبه، ليس بعالم ولا بطالب له. فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما يخالفها. ومعنى الرباني في اللغة: الرفيع الدرجة في العلم، العالي المنزلة فيه، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: " لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ"(المائدة: ٦٣)، وقوله تعالى: " وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ"(آل عمران: ٧٩)، قال ابن عباس–رضي الله عنهما–: حكماء فقهاء، وقال أبو رزين –رحمه الله–: فقهاء علماء.

وقال أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد –رحمه الله–: سألت ثعلبا عن هذا الحرف، وهو الرباني، فقال: سألت ابن الأعرابي فقال: إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له: هذا رباني، فإن حرم خصلة منها لم يقل له: رباني.

قال أبو بكر الأنباري –رحمه الله– عن النحويين: إن الربانيين منسوبون إلى الرب تعالى، وإن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب، كما تقول: لحياني وجبهاني إذا كان عظيم اللحية والجبهة.

وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها، والأنفة من مجانسة البهائم. وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم. وأما القسم الثالث: فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأوهد، والهبوط الأسفل، التي لا منزلة بعدها في الجهل، ولا دونها في السقوط، وما أحسن ما شبههم الإمام علي بالهمج الرعاع! والهمج الرعاع به يشبه دناة الناس وأراذلهم. والرعاع: المتبدد المتفرق. والناعق: الصائح، وهو في هذا الموضع الراعي، يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق إذا صاح بها" (الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٥١/١)

ومما ينسب لأمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه من الشعر قوله:

الناسُ من جهة التمثيل أكفاءُ أبوهم آدمٌ والأمُّ حَوَّاءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٍ مُشَاكلةٌ وأعْظُمٌ خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب يفاخرون به فالطينُ والماءُ
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدِلاءُ
وقدر كل أمرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وقال عليٌّ رضي الله عنه أيضا في خطبة خطبها: "واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون، وقدر كل أمرئ ما يحسن، فتكلموا في العلم تتبين أقداركم"

قال ابن عبد البر –رحمه الله–: ويقال إن قول علي بن أبي طالب "قيمة كل أمرئ ما يحسن" لم يسبقه إليه أحد. وقالوا: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها. قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل: "ما ترك الأول للآخر شيئا" (جامع بيان العلم: ص١٣٢)

وقد أخذ الخليل قول عليّ رضي الله عنه "قيمة كل أمرئ ما يحسن" فنظمه شعرا فقال:

لا يكون العليُّ مثل الدنيِّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الإمام عليِّ

وقال عليٌّ رضي الله عنه أيضا: "كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه" (تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعةص٦٩) (المجموع للنووي: ٤١/١)

٢– قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تعلموا العلم، وعلموه الناس وتعلموا له الوقار والسكينة وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم" (جامع بيان العلم وفضله: ١٣٥/١)

– وقال عمر رضي الله عنه أيضا: "أيها الناس عليكم بالعلم؛ فإن لله سبحانه وتعالى رِدَاءً يحبه، فمن طلب باباً من العلم رَدَّاهُ الله بردائه، فإن أذنب ذنبا اسْتَعْتَبَهُ لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به".

قال ابن القيم –رحمه الله– كما في كتابه مفتاح دار السعادة: ٣٩٧/١":

"ومعنى استعتاب الله عبده: أن يطلب منه أن يعتبه؛ أي: يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة، فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه، فيكون قد أعتب ربه، أي: أزال عتبه عليه، والرب تعالى قد استعتبه؛ أي: طلب منه أن يعتبه. ومن هذا قول ابن مسعود–وقد وقعت زلزلة بالكوفة–: إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه.

٣- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " اغد عالما أو متعلما، ولا تغد بين ذلك"
(كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب:١١٦)
- وقال أيضا رضي الله عنه: "يا أيها الناس تعلموا، فمن علم فليعمل" (المصدر السابق).
- وقال أيضا: عليك بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أهله، أو قال أصحابه"
(أخرجه الهيثمي من مجمع الزوائد: ١٢٦/١) (الطبري في الكبير: ١٧٠/٩)
- وفي رواية أخرى قال رضي الله عنه: "عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه هلاك العلماء، فو الذي نفسي بيده ليودّن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحداً لم يولد عالما، وإنما العلم بالتعلم" (مفتاح دار السعادة: ٣٩٧/١)

٤- وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "العلم بالتعلم، والحلم بالتحلّم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه" (كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب:١١٤).
- وقال أيضا رضي الله عنه: "العالم والمتعلم في الأجر سواء، وسائر الناس همج لا خير فيهم" (أخلاق العلماء للآجري).

٥- وقال أبو العالية -رحمه الله- تعالى: كنت آتي ابن عباس -رضي الله عنهما-وهو على سريره، وحوله قريش، ففطن لها ابن عباس فقال: "كذاك هذا العلم، يزيد الشريف شرفا، ويجلس المملوك على الأَسِرَّةِ "
(الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٣١/١)
- وقال ابن عباس- رضي الله عنهما -: " تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها"[١].
- قال إسحاق بن منصور: ذكرت لأحمد بن حنبل: قول ابن عباس- رضي الله عنهما -: "تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها"، فقلت: أيُّ علمٍ أراد؟ قال: هو العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم، قلت: في الوضوء، والصلاة، والصوم، والحج، والطلاق، ونحو ذلك؟ قال: نعم. (جامع بيان العلم وفضله: ٢٤/١)

٦- وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاق، والقرب عند الغرباء. يرفع الله به أقواما. فيجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم، وأئمة في الخلق تقتفى آثارهم، وينتهى

---

[١]- راوي هذا الأثر عن ابن عباس- رضي الله عنهما -هو قتادة، وقتادة لم يسمع عن ابن عباس، فالأثر فيه انقطاع لكن المعنى صحيح.

إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبهم بأجنحتها تمسحهم، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباعُ البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار، ومجالسة الملوك، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يُطاع الله–عز وجل–وبه يعبد الله–عز وجل–وبه توصل الأرحام وبه يُعرف الحلال من الحرام، إمام العمل والعمل تابعه، يُلهمه السعداء، ويُحرمه الأشقياء" (أخلاق العلماء للآجري) (تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٧٠)

– ولما حضرت معاذ بن جبل رضي الله عنه الوفاة قال لجاريته: "ويحك! هل أصبحنا؟" قالت: لا، ثم تركها ساعة، ثم قال: انظري، فقالت: نعم، فقال: أعوذ بالله من صباح إلى النار، ثم قال: مرحبا بالموت، مرحبا بزائر جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء؛ لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر" (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر:١/٥١) (أحمد في الزهد ص٢٢٦ بإسناد فيه مجهول)

٧– قال عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: "فضل العلم أحب إلى من فضل العبادة، وخير دينكم الورع" (كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب (٩)

٨– وقال سعيد بن المسيب –رحمه الله–: "ليست عبادة الله بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في الدين"

– قال ابن القيم –رحمه الله–: "هذا الكلام يراد به أمران: أحدهما: أنها–أي: عبادة الله– ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم، ولكن بالفقه الذي يُعلم به كيف الصوم والصلاة. الثاني: أنها ليست الصوم والصلاة فقط، بل الفقه في دينه من أعظم العبادات. (مفتاح دار السعادة: ١/٣٨٩).

٩– قال عمر بن عبد العزيز–رحمه الله– في كتابه إلى أبي بكر بن حزم: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم[١] وذهاب العلماء. ولا تقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا " (فتح الباري: ١/١٩٤)

– وقال عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–: "من عمل في غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح".

(جامع بيان العلم وفضله: ١/٢٧)

[١] – دروس العلم: فناؤه وذهابه.

١٠- قال عون بن عبد الله: قلت لعمر بن عبد العزيز: يُقال "إن استطعت أن تكون عالما فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تكن متعلما فأحبهم، فإن لم تحبهم فلا تبغضهم. فقال عمر بن عبد العزيز: "سبحان الله لقد جعل الله-عز وجل-له مخرجا (كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب:٧٢٦).

١١- يقول الحسن البصري -رحمه الله-: "العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا" (جامع بيان العلم لابن عبد البر: ١٣٦/١)

- وقال الحسن أيضا-رحمه الله-: "من طلب العلم يريد به ما عند الله، كان خيرا له مما طلعت عليه الشمس" (شرح المنة: ٢٧٥/١)

١٢- قال فضيل بن غزوان-رحمه الله- تعالى-: "كنا نجلس أنا وابن شبرمة والحارث العُكْلِيُّ والمغيرة والقعقاع بن يزيد بالليل نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر"(العلم لزهير بن حرب (٢٧)

١٣- قال عبد الملك بن مروان لبنيه: "يا بني تعلموا العلم فإن استغنيتم كان لكم كمالا، وإن افتقرتم كان لكم مالا".

١٤- وعن قتادة -رحمه الله- قال: "باب من العلم يحفظه الرجل بصلاح نفسه وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حول" (جامع بيان العلم وفضله: ٢٣/١) (شرح السنة: ٢٧٥/١)

١٥- وقال محمد بن شهاب الزهري -رحمه الله-: "ما عبد الله بمثل الفقه" (تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٧١)

- قال ابن القيم -رحمه الله-: "هذا الكلام ونحوه، يراد به أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه في الدين، فيكون نفس التفقه عبادة، وقد يراد به: أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه في الدين؛ لعلم الفقيه في دينه بمراتب العبادات، ومفسداتها، وواجباتها، وسننها، وما يكملها، وما ينقصها، وكلا المعنيين صحيح" (مفتاح دار السعادة: ٣٩٠/١)

- وقال الزهري أيضا: " الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعا، ونعش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله. (أخرجه الدارمي في مقدمة سننه برقم:٩٧)

وقال أبو بكر الهذلي -رحمه الله-: قال لي الزهري -رحمه الله-: "يا هُذلي! أيعجبك الحديث؟ قال: قلت: نعم، قال: أما إنه يعجب ذكور الرجال، ويكرهُهُ مؤنثوهم" (شرف أصحاب الحديث ص٧٠)

وفي لفظ آخر قال –رحمه الله–: "لا يطلب الحديث من الرجال إلا ذُكرانُها، ولا يزهد فيه إلا إناثُها"– (شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص٧١)

وأنشد أبو الفضل العباس بن محمد الخراساني:

رحلت أطلب أصل العلم مجتهدا وزينة المرء في الدنيا الأحاديث

لا يطلب العلم إلا بازل[1] ذكر وليس يبغضه إلا المخانيث

لا تعجبن بمال سوف تتركهفإنما هذه الدنيا مواريث

(شرف أصحاب الحديث ص٧١) (الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص٩٦)

١٦– وقال بعضهم: "الجاهل صغير وإن كان شيخا، والعالم كبير وإن كان حدثا"

وصدق الشافعي –رحمه الله– حيث قال:

تعلم فليس المرءُ يولدُ عالماً وليس أخو علمٍ كمن هو جاهلُ

وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت إليه المحافلُ

وإن صغير القوم إن كان عالما كبير إذا ردت إليه المحافل

(جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: ١/١٥٩)

١٧– وروي عن الأعمش –رحمه الله– قال:

"إذا رأيت الشيخ، لم يقرأ القرآن، ولم يكتب الحديث، فاصفع له، فإنه من شيوخ القمر"

قال أبو صالح: قلت لأبي جعفر: ما شيوخ القمر؟ قال: شيوخ دهريون، يجتمعون في ليالي القمر، يتذاكرون أيام الناس، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة" (شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص٦٧)

١٨– وقال سفيان الثوري –رحمه الله–: "ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت النية"

(جامع بيان العلم وفضله: ١/٢٥) (شرح السنة: ١/٢٧٥)

وقال أيضا: "إن هذا الحديث عز، فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها"

وقال أيضا: ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم (تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٧١)

١٩– وقالت امرأة لإبراهيم النخعي: يا أبا عمران، أنتم معشر العلماء أحد الناس، وألوم الناس. فقال لها: أما ما ذكرت من الحدة، فإن العلم معنا والجهل مع مخالفينا، وهم يأبون إلا دفع علمنا بجهلهم، فمن ذا يطيق الصبر على هذا؟ وأما اللوم، فأنتم تعلمون تعذر الدرهم الحلال، وإنا لا نبتغي الدرهم إلا حلالا، فإذا صار إلينا لم نخرجه إلا في وجهه الذي لابد منه"(جامع بيان العلم وفضله: ١/٦٠)

---

[1] – البازل: الرجل الكامل في تجربته.

٢٠- وقال عبد الملك بن المبارك -رحمه الله-: خير سليمان بن داود بين الملك والعلم فاختار العلم فآتاه الله الملك والعلم معه باختياره العلم.

٢١- يقول سهل بن عبد الله التُّسْتَري -رحمه الله-:

"الناس كلهم سكارى إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه"

وقال أيضا: "الدنيا جهل ومرات إلا العلم، والعلم كله حجة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به" (اقتضاء العلم العمل: ص٢٩)

٢٢- ويقول سفيان بن عيينة -رحمه الله-:

"تدرون ما مثل الجهل والعلم؟ مثل دار الكفر ودار الإسلام، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد جاء أهل الكفر فأخذوا دار الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جهالا"(الفقيه والمتفقه: ٣٥/١)

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح"

(جامع بيان العلم ص١٢٧)

٢٣- قال عبد الله بن عون -رحمه الله- تعالى-: "ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه، ويدعوا الناس إلا من خير" (فتح الباري: ٢٤٨/١)

٢٤- قال الآجري -رحمه الله-: "لا يكون ناصحا لله تعالى ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له، وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم"(بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي: ٦٧/٥)

٢٥- قال محمد بن الفضل السمرقندي الواعظ--رحمه الله- تعالى-: "كم من جاهل أدركه العلم فأنقذه، وكم من ناسك عمل عمل الجاهلية فأوبقه، احضر العلم وإن لم تحضرك النية، فإنما تطلب بالعلم النية، وإن أول ما يظهر من العبد لسانه، وأول ما يظهر من عقله حلمه" (الشُّعب:٤٥١/٧)

وصدق عطاء بن يسار--رحمه الله- تعالى-حين قال: "ما أوتي شيءٌ إلى شيءٍ أزين من حلم إلى علم"

(كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب:٢١)

٢٦- وقال أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله-: "كنت عند أحمد بن أبي عمران فمر بنا رجل من بني الدنيا، فنظرت إليه، وشغلت به عما كنت في المذاكرة، فقال لي أحمد بن عمران: كأني بك قد فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا: قلت له: نعم. قال: هل أدلك على خلة؟ هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من

المال، ويحول إليه ما عندك من العلم، فتعيش أنت غنيا جاهلا، ويعيش هو عالما فقيرا؟ فقلت: ما أختار أن يحول الله ما عندي من العلم إلى ما عنده، فالعلم غنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وسلطان بلا رجال"

(مفتاح دار السعادة: ١/٥٠٧)

٢٧- وعن وهب بن منبه-رحمه الله- قال: "يتشعب من العلم الشرف، وإن كان صاحبه دنيا، والعز وإن كان مهينا، والقرب وإن كان قصيا، والغنى وإن كان فقيرا، والنبل وإن كان حقيرا، والمهابة وإن كان وضيعا.

(المجموع للنووي: ١/٤٢) (تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٧٠)

٢٨- قال عمرو بن عثمان الملكي -رحمه الله-: "العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك جموح خداعة رواغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد"(سير أعلام النبلاء: ١٤/٥٨).

٢٩- قال الإمام أحمد: "الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس"

(مدارج السالكين: ٢/٤٧٠) (إعلام الموقعين: ٢/ ٢٥٦)

- وقال عبد الله بن محمد البغوي-رحمه الله-: " سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل -رحمه الله- يقول: "أنا أطلب العلم حتى أدخل القبر"

- وقال الحسن بن منصور الجصاص-رحمه الله-: قلت لأحمد بن حنبل: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: حتى يموت. وقيل لعبد الله بن المبارك -رحمه الله-: إلى كم تكتب الحديث؟ قال: "لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد" (شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص٦٨)

٣٠- وقال عبد الله بن بشير الطالقاني-رحمه الله-: أرجو أن يأتيني أمري والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني العلم والمحبرة.

٣١- قال أبو بكر البصري: "دخلت على سهل بن عبد الله ومعي المحبرة فقال لي: تكتب؟ قلت: نعم. قال: اكتب فإن استطعت أن تلقي الله-عز وجل-ومعك المحبرة فافعل" (الشُّعب:٧/٤٥٧)

٣٢- وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسن أن يطلب العلم؟ قال: إن كان يحسن به أن يعيش.

(مفتاح دار السعادة: ١/٧٤)

٣٣- وقال المنصور بن المهدي للمأمون: "أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ فقال: إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به" (جامع بيان العلم: ص١٢٧)

٣٤- قال الشافعي -رحمه الله-: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم".

– وقال: "من لا يحب العلم فلا خير فيه، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة".

– وقال: "إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي".

– وقال: "ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء"

– وقال المزني –رحمه الله–: سمعت الشافعي يقول: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه" (المجموع للنووي: ٤٢/١)

وقال الشافعي –رحمه الله– في ديوانه ص١٥٣:

رأيت العلم صاحبه كريما ولو ولدته آباء لئام

وليس يزال يرفعه إلى أن يعظم أثره القوم الكرام

ويتبعونه في كل حال كراعي الضأن تتبعه السوام[1]

فلولا العلم ما سعدت رجال ولا عرف الحلال ولا الحرام

قال الشافعي أيضا –رحمه الله–: "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة"(مدارج السالكين: ٤٧٠/٢)

وقال أيضا –رحمه الله–: "ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم"

قال ابن القيم –رحمه الله– في كتابه " مفتاح دار السعادة: ٣٩١/١" تعليقا على كلام الشافعي –رحمه الله–: "وهذا الذي ذكره أصحابه عنه أنه مذهبه"(يعني طلب العلم أفضل الأعمال بعد الفرائض) وكذلك قال سفيان الثوري، وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة.

وأما الإمام أحمد فحُكِيَ عنه ثلاث روايات:

إحداهن: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم، فإنه قيل له: أي شيء أحب إليك: أجلس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعا؟ قال: نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلي.

وذكر الخلال عنه في كتاب "العلم" نصوصا كثيرة في تفضيل العلم. ومن كلامه فيه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب.

والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع، واحتج بهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم: "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة"–رواه بن ماجه وصححه الألباني–، وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر رضي الله عنه وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال: "خَيْرٌ

[1]– السوام: جمع سائمة وهي الأغنام وغيرها.

موضوع" وفي رواية" خَيْرُ موضوع" والحديث رواه الإمام أحمد وحسنه الألباني، وبأنه أوصى من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود. كما في رواية مسلم من حديث ربيعة بن كعبرضي الله عنه.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: "عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة" رواه مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه، وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض الجهاد، فإنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا أعدل بالجهاد شيئا ومن ذا يطيقه" بنحو من هذا اللفظ أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرةرضي الله عنه.ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

وأما مالك؛ فقال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: إن أقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك بن أنس فوضعت ألواحي، وقمت إلى الصلاة (صلاة النافلة) فقال: ابن وهب! ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته. (انظر مدارج السالكين: ٢/٤٧٠)

وقال ابن القيم–رحمه الله–قال شيخنا–يريد: شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: وهذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها–وهي الصلاة والعلم والجهاد–هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها، لولا أن أحمل، أو أجهز جيشا في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر لما أحببت البقاء. فالأول: الجهاد، والثاني: قيام الليل، والثالث: مذاكرة العلم. فاجتمعت في الصحابة بكمالهم، وتفرقت فيمن بعدهم.

(مفتاح دار السعادة: ١/٣٩١)

٣٥– وقال ابن جماعة في كتابه "تذكرة السامع والمتكلم ص٧٢–٧٣":

"وقد ظهر بما ذكرناه، أن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية؛ من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك؛ لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس، والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها، ولأن العلم مصحح لغيره من العبادات، فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه، ولا يتوقف هو عليها، ولأن العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وليس ذلك للمتعبدين، ولأن طاعة العالم واجبة على غيره فيه، ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه، وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن في بقاء العلم إحياء الشريعة، وحفظ معالم الملة.

٣٦- وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: "حظ من علم أحب إلي من حظ من عبادة، ولأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، ونظرت في الخير الذي لا شر فيه، فلم أر مثل المعافاة والشكر

(جامع بيان العلم وفضله١/٢٤)

٣٧- قال بعض السلف: "إذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم"

٣٨- وقال بعض الأدباء: "كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة".

٣٩- قال بعض السلف: أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم.

٤٠- وقيل لحكيم: أي الأشياء ينبغي للعالم أن يقتبسها؟ قال: "الأشياء التي إذا غرقت سفينته سبحت معه (يقصد العلم).

٤١- وقال غيره: "من اتخذ العلم لِجاماً اتخذه الناس إماما، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار".

٤٢- وقال النضر بن شميل: "من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده".

٤٣- وقف رجل على باب عالم يريد أن يسأله عن مسألة فنادى وقال: تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا، ولا يسقم نفسا، فأخرج له طعام ونفقة، فقال: فَاقِتِي إلى كلامكم أشد من حاجتي إلى طعامكم، إني طالب هدى لا سائل ندى[١] فأذن له العالم، وأفاده من كل ما سأل عنه، فخرج جذلان[٢] فرحا، وهو يقول: علم أوضح لبسا[٣]، خير من مال أغنى نفسا"(أدب الدنيا والدين للماوردي ص٢٧-٢٨)

٤٤- وقال بعض الأدباء: "العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف".

٤٥- يقول لقمان لابنه: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء.

٤٧- وقال ابن القيم -رحمه الله-: "من نال شيئا من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم. وتأمل ما حصل لآدم من تمييزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه تعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته كما أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: " كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ

---

[١] - الندى: العطاء

[٢] - جذلان: مسرور

[٣]- لبسا: أي أمرا مشكلا غامضا.

فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " (يوسف: ٧٦) جاء في تفسيرها: نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

وقال في إبراهيم صلى الله عليه وسلم: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء"(الأنعام: ٨٣) فهذه رفعة بعلم الحجة، والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: "هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً "(الكهف: ٦٦)

وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها، ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ"

(النمل: ١٦)

وكذلك ما حصل لداود من علم نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال: "وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون "(الأنبياء: ٨٠)

وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه.

وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه، فقال: "وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً "(النساء: ١١٣) (مفتاح دار السعادة: ٥٢١/١)

وقال أيضا –رحمه الله–: "أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة، ولذَّةَ النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدُّوه منها: هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء، وهما من عدم العلم" (مفتاح دار السعادة: ٣٧٣/١)

قال أيضا –رحمه الله– كما في" مفتاح دار السعادة: ٨٣/١": "العامل بلا علم كالسائر بلا دليل، ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قدر من سلامته اتفاقا نادرا فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "من فارق الدليل ضل السبيل"، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول. وقال الحسن: "العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا، لا تضروا به العبادة، واطلبوا العبادة طلبا، لا تضروا به العلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأسيافهم، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا. أه

وقال أيضا –رحمه الله– في كتابه " مفتاح دار السعادة: ٤٦/١–٤٧"

"أعلم يا أخي أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته إخراج آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضل منها، وهو ما أعطاهم من عهده[1]، الذي جعله سببا موصلا لهم إليه، وطريقا واضحا بين الدلالة عليه، من تمسك به فاز واهتدى، ومن أعرض عنه شقي وغوى، ولما كان هذا العهد الكريم، والصراط المستقيم، والنبأ العظيم، لا يوصل إليه أبدا إلا من باب العلم والإرادة، فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين: همه ترقيه، وعلم يبصره ويهديه. فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما، إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالما بها ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوسا، قد أسام نفسه مع الأنعام، راعيا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرف العلم تابعا لشرف معلومه، كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له إلا بها، أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى، إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه، الذي بعثه داعيا لهم بإذنه إلى دار السلام، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه، أو يقبل من أحد منهم سعيا إلا أن يكون مبتدأ منه ومنتها إليه، فالطرق كلها إلا طريق- صلى الله عليه وسلم-مسدودة والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة.

فحُقَّ على من كان في سعادة نفسه ساعيا، وكان قلبه حيا عن الله واعيا، أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله، وأن يُصَيِّرَهما أخبيته التي إليها مفزعة في حياته. أه

- وقال أيضا -رحمه الله- كتابه "إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان: ٢٤/١":

"لما كان في القلب قوتان؛ قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته.

فكماله باستعمال قوة العلم في الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل.

---

[1]- من عهده :وهو قوله تعالى: " قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ"(البقرة: ٣٨)وفي الآية الأخرى قال تعالى: " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً(١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى" (طه: ١٢٣-١٢٦)

فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر عليه غيره، فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه

وقال أيضا –رحمه الله–: "فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته، وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه، وتارة من ظهور النقص والشر بفقده، وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده، لكونه محبوبا ملائما– فإدراكه يعقب غاية اللذة–وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية، وإفضائه إلى أجل المطالب.

وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلَّقه؛ فإذا كان في نفسه كمالا وشرفا– بقطع النظر عن متعلقاته– جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته.

ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم، فإنه أعم شيء نفعا، وأكثره وأدومه، والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء، بل فوق الحاجة إلى التنفس، إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم، وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح، فلا غناء للعبد عنه طرفة عين، ولهذا إذا فقد من الشخص كان شرا من الحمير، بل كان شرا من الدواب عند الله، ولا شيء أنقص منه حينئذ.

وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده، فلأنه كمال في نفسه، وهو ملائم غاية الملائمة للنفوس، فإن الجهل مرض ونقص، وهو في غاية الإيذاء والإيلام للنفس، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه وموت نفسه: "وما لجرح بميت إيلام".

فحصوله للنفس إدراك منها لغاية محبوبها، واتصال به، وذلك غاية لذتها وفرحتها، وهذا بحسب المعلوم في نفسه، ومحبة النفس له ولذتها بقربه.

والعلوم والمعلومات متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأبينه، فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته والتقرب إليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها (مفتاح دار السعادة: ١/٣٠٩).

وقال أيضا –رحمه الله–: "العلماء بالله وأمره هم حياة الوجود وروحه، ولا يستغنى عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء، بل أعظم، وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها. أه

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منِّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

المحتويات

تمهيد ٢
أولا: فضل العلم من كتاب الله عز وجل..... ٣
ثالثا: فضل العلم من أقوال السلف ٦
ثانيا: فضل العلم من كلام الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم ٢٥
وصية النبي صلى الله عليه وسلم بطلبة العلم ٢٧
ثالثا: فضل العلم من أقوال السلف ٤٧